علم النفس والإسلام

- ٤ -

للدكتور محمد مظهر سعيد

عميد التربية وعلم النفس والاجتماع

عاطفة الدين :

يرى علماء الغرب أن عاطفة الواجب والكرامة هى أسمى مايتوج به الانسان سلوكه وتكوينه الخلقى . ولكنا معشر المسلمين يجب أن نبحث عن هـذا التاج فى تعاليم الاسلام ، وأن نجعل من حب الدين أسمى عاطفة انسانية تشغل قلوبنا ، وأن نبنى حياتنا الوجدانية على أساس سليم متين ، فى حب الله ورسوله والقرآن الكريم والسنة الشريفة لان الاسلام كله تنظيم لحياة البشر فى جميع نواحيها .

والدين يتطلب رجالا صدقوا ماعاهدوا الله عليه ، رجالا باعوا أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة ، رجالا جديرون بأن يكونوا خلفاء الله على الارض .. يعلمون سرها ويسخرونه للخير ودفع الأذى ، ويعرفون للكرامة قدرها .. وللعزة موضعها ، ويميزون بين الاعداء والاصدقاء ، ويؤمنون بأن متاع الدنيا قليل وان الآخرة خير وأبقى .

ومن المسلمين من تشغله الدنيا بمطالبها ومتعها ، فلا ينعطف نحو الدين الا بقدر ماتتطلبه أوامره ونواهيه، فيطيع الاوامر طمعا فى الثواب ، ويتجنب النواهى خوفا من العقاب ، ومن ثم يرتبط الدين بسلوكه الغريزى ، وليس العاطفى، كما يرتبط سلوك الطفل بأوامر الوالدين، فهو هادىء آمن مادامت عينا الوالدين لاترقبه ، ويد الجماعة لاتمتد اليه ، ولكن المسلم الذى يسمو بدوافعه فيكون فى نفسه عاطفة حب الدين ، يراقب نفسه فى جميع الظروف والاحوال ، لان الدين يملك عليه شغاف قلبه ، ويمثل مركز عاطفته ، فهو دائما معه ، متصل به ، وعيه فى هذه العاطفة الدينية عاصما له من الفسوق، منفرا من العصيان ، لاخوفا من العقاب ، أو طمعا فى الثواب ، بل لان العاطفة الصادقة تتطلب منه أن يسلك الطريق السوى ، لانه مناسب لها ، بصرف النظر عن أى اعتبار ، والله تعالى يقول **(ولكن الله حبب اليكم الايمان وزينه فى**

قلوبكم ، وكره اليكم الكفر والفسوق والعصيان) . فاذا ماوصل الانسان الى هذه ، حاول أن يقتفى فى حياته ، وجميع سلوكه وتصرفاته ، أثر الرسول الذى يحب . ليكون جديرا بهذا الحب الشريف .

وغاية هذه العاطفة الشريفة حب الله والفناء فيه ، بحيث لايكون فى القلب شاغل الاه ، ويقول الكتاب الكريم **(ومن الناس من يتخذ من دون الله أندادا يحبونهم كحب الله ، والذين آمنوا أشد حبا لله)**

ويبدى الفلاسفة والمتصوفون والأئمة الذين تشبعوا بروح الدين وحب الله منتهى سعادة الدنيا والدين فى الاتصال بالله ، والاتصال بالناس فى حدود حب الله ، وفى هذا يقول ابن ماجه عن العلماء ، ولما كانوا متحابين فان المحبة هى التى تقود نظام حياتهم كلها ، ولما كانوا أحبابا لله - وهو الحق - فانهم يجدون راحة نفوسهم فى الاتحاد بالعقل الفعال الذى يفيض المعرفة على الانسان .

ويقول ذو النون معبرا عن رأى الصوفية «اذا وجدت ربى فقدت قلبى ، واذا وجدت قلبى فقدت ربى» والمقصود بالقلب التعلق بالدنيا وعواطفها .

ويقول الامام الغزالى «النفس تبلغ سعادتها العظمى متى أحست بفنائها فى الله ، فالاشياء كلها واحدة يؤلف بينها الحب ، والعبودية الكاملة لله تسمو على الخوف من العقاب أو رجاء الثواب ، وتتجاوزها الى مقام تحب فيه النفس خالقها حبا روحانيا» .

وقد قسم ابن سينا أصحاب هذه العاطفة الى مراتب :

فمنهم العابد المواظب على العبادات ، والزاهد المعرض عن متاع الدنيا وطيباتها ، يترك لذات الدنيامرتقيا ثوابا أخرويا، وأخيرا العارف المنصرف بفكره الى قدس الجبروت ، مستديما لشروق نور الحق فى سره ، فيعبد الله حق عبادته ، ويحبه منصرفا اليه بفكره، لا يبتغ بذلك غير ذات الحق، فلا يرجو ثوابا ولا يخشى عقابا ، فالعارف فى أرقى مقام لانه فى زهده تنزه عما يشغل به غير الحق ،وفر من كل شىء غير الحق ، فى حين أن زهد غير العارف معاملة ما ، كأن يشترى بمتاع الدنيا متاع الآخرة ، وعبادته معاملة ما - كأن يعمل لأجرة يأخذها فى الاخرة هى الاجر والثواب .

تطور السلوك الانسانى :

يتدرج الانسان فى المستوى الغريزى المناسب للحيوان الى مستوى العواطف الكاملة الخليق بالانسان فى مستويات أربعة .

فهو فى حالته الفطرية ونشأته الاولى ، التى يكون فيها طفلا أو متوحشا

يخضع أولا لغرائزه، وينصرف الى توقعه، ولا يستطيع أن يقدر نتيجة سلوكه أو يعدل فيه أو ينشد غاية غير الغاية السريعة الملحة التى تريد الغريزة أن تشبع نفسها بها ، وليس لارادته من سبيل لضبط نزعاته وكبح جماح شهواته ، فهو يهرب اذا اشتم رائحة الخطر قبل أن يعلم مصدره أو يقدر مبلغه ، ولا يعد الهرب جبنا وخورا ، وقد يندفع دون روية فيما يظنه طريق النجاة ، فينجو من خطر مؤقت الى ماهو أشد منه خطرا ، ويقاتل من هو أقوى منه اذا غضب قبل أن يتدبر نتيجة القتال ، ويعتدى على الناس لاخذ ماليس له فيه حق ، من غير أن يعد ذلك اغتصابا ٠

فاذا كبر قليلا تلقاه من هو أكبر منه ـ سنا أو جسما أو مقاما ـ من الوالدين وأولياء الامور والمربين والرؤساء ، وبدأ المشرف عليه يحاسبه حسابا ماديا عسيرا ، ويرسم له طريق حياته رسما دقيقا ، ويفرض عليه نظاما محدودا ، ويعاقبه عقابا مدنيا مؤلما ان اخطأ ، ويثيبه ثوابا ماديا كذلك ان أصاب ٠٠ فيتألم للاولى ويسر للثانية ، ويصبح كل من الالم والسرور مقياسا لتصرفاته فيفعل ما يجلب له السرور ، ويتجنب مايحدث الالم ، وتدور حياته كلها فى هذا الدور حول محور السرور والالم الماديين ، وبتأثير هذا المحور يتعلم كيف يحد من نزواته وغرائزه بعض الشيء ، فيتجنب الوقوع فى الخطأ وهو يطلبه ويشتهيه ، ويقوم بما يرضى الغير وهو كاره له ، ولو لم يعرف للحالين سببا أو حكمة ، وينقلب بذلك من مخلوق أنانى الى انسان مادى نفعى ٠

ولكن الخلق الاجتماعى المبنى على مجرد الخوف من العقاب وارضاء صاحب السلطان لايليق بالانسان المتمدين ، وانما هو خلق العبد الاسير المسلوب الارادة ، ولا يكون الانسان ذا خلق مقبول الا اذا فعل الخير بوازع من نفسه، غير متطلع الى نتيجة يتطلبها أو منفعة يحصلها ٠

فاذا كبر وارتقى عقله واتسعت مداركه وتجاربه ، وازداد احتكاكا بالناس واندمج فى الجماعة ، ودفع تحت تأثير سلطانها ، بحكم عضويته فيها ، يدرك أن الناس قد تواضعت على أشياء يستحسنونها ويحبذون فعلها ويميلون الى من يفعلها وأشياء أخرى يستهجنونها ويذمون من يقومون بها ، فيدخل فى سلوكه عامل جديد، هو ارضاء الناس عنا لثنائهم ومديحهم ، وتجنب مايجلب النقد والمنفعة ، وبذلك يتعدل الثواب والعقاب الماديان بعض الشيء فيصبحان معنويين ، يتمثلن فى المدح والقدح ،ويدافع هذين العاملين يتصرف الانسان فتجيء تصرفاته خاضعة لرقابة المجتمع وأحكامه والعرف والتقاليد ، فيفعل مايرضى الناس ويتظاهر به ولو كان كارها له ، ويبتعد عما يذمه الناس ، وان كان فى نفسه يرضى عنه ، ويود لو يدعو له ، ومن الناس من يضحى بما يملك فى سبيل الحصول على اللقب والشهرة وحسن الاحدوثة ، وقد يسكت عن الحق المؤلم ويكتمه خوف النقد والخروج على الجماعة ، وقد

يطغى الألم من ذم الناس على السرور فى ارضاء الضمير ، فيندفع الانسان فى غير الطريق السوى ، وفى هذه المرحلة يحب الانسان أشياء ويكره أشياء أخرى ، ويتصرف فى مستوى العواطف ، لكنه ليس حبا خالصا لله والضمير وفى الحديث الشريف « يؤتى يوم القيامة بالرجل فيقال له بما كان اشتغالك فيقول بقراءة القرآن ، فيقال له : لقد كنت تقرأ ليقال هو قارىء ، وقد قيل ذلك ، فيؤمر به الى النار .

وأخيرا ينظر الانسان الى الله مجردة من كل اعتبار ، والى أعماله بالمنظار الذى يرضى ضميره وترتاح اليه نفسه فيسمو فوق المديح ، ولا يغريه سماعه دفوف النقد فلا يؤذيه ولو كان شديدا ، ويصبح رجلا ذا كرامة ودين . لايفعل الا مايراه حقا ، ولو أضر به تمسكه بالحق ، ويتفانى فى مبدئه ولو كان فيه هلاكه ، ويتجنب النقائص خجلا من كل مالايتفق وكرامة الرجل الفاضل ويصبح حبه وكراهيته للمبدأ الذى كونه ، والمثل العالى الذى ينشده ، والدين الذى يتعلق به ، ويفعل المعروف لايبغى به ثوابا ولا مديحا **(ويطعمون الطعام على حبه مسكينا ويتيما وأسيرا ، انما نطعمكم لوجه الله لانريد منكم جزاءا ولا شكورا)** .

ولا يبالى برضا الناس ، ولا يطيعهم فى معصية الخالق ، وفى الحديث الشريف « من أسخط الله فى رضا الناس ، سخط الله عليه وأسخط عليه من أرضاه فى سخطه ، ومن أرضى الله فى سخط الناس رضى الله عنه وأرضى عنه من أسخطه فى رضاه حتى يزينه ويزين قوله وعمله فى عينه ، ومن تحبب الى الناس بما يحبوه وبارز الله تعالى لقى الله تعالى يوم القيامة وهو عليه غضبان .

ويعدل فى حكمه ولو على نفسه والاقربين اليه ، قال تعالى » **ياأيها الذين** آمنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسكم أو الوالدين والاقربين ان يكن غنيا أو فقيرا ، فالله أولى بهما ، فلا تتبعوا الهوى أن تعدلوا وأن تلوا أو تعرضوا فان الله كان بما تعملون خبيرا) .

وفى ختام هذه الرحلة يصل الشخص الى درجة السمو وكمال التقى التى يصورها الامام على بن أبى طالب « بقاء فى فناء ، ونعيم فى شقاء ، وعز فى وفقر فى غنى ، وصبر فى بلاء » .

وكما يقول ابن مسكويه « لايزال الانسان يرقى ويزداد ذكاء وبهجة فى الفكر وجودة فى الحكم حتى يبلغ أفق الملائكة ، ويناسبها ويستخدمها ، والانسان يترقى حتى يبلغ الافق الاعلى الخاص به» .

وبذلك يستبدل بنفسه الامارة بالسوء نفسا آمنة مطمئنة ، خاطبها الله تعالى بقوله **(ياأيتها النفس المطمئنة ارجعى الى ربك راضية مرضية ، فادخلى فى عبادى وادخلى جنتى)** .

وتندمج نزعاته الموروثة المكتسبة كلها فى نظام واحد محكم يدور حول الواجب والشعور به ، والحكم على الاشياء والاشخاص فى ضوء هذا الواجب والمبادىء الخلقية والدينية التى يتطلبها ، واختيار الطريق السوى الذى يحققها ، بل يصبح الانسان قطعة من الكرامة والواجب والدين ، تمشى بين الناس دليلا قاطعا على أن فى استطاعة هذا الحيوان الناطق أن يكون انسانا كاملا .

محمد مظهر سعيد
عميد التربية وعلم النفس والاجتماع

• • •

هدية

لمشتركى العام الجديد

فى مجلة الاسلام والتصوف

تفضل الاستاذ الدكتور عبد الحليم محمود أستاذ الفلسفة والتصوف بكلية أصول الدين فاهدى الى مشيخة الطرق الصوفية خمسمائة نسخة من كتابه « مذكرات مختصرة فى الفلسفة الاسلامية » .

وستهدى مجلة الاسلام والتصوف هذه النسخ القيمة للخمسمائة مشترك الاوائل فى عامها الجديد الذى يبدأ من العدد القادم .